القسم الثالث

حقوق السفهاء الذين لا يحسنون إدارة الأموال لتأهيلهم وجعلهم شركاء في البناء لا معاول للهدم (النساء:٥)

آية هذا القسم:

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (النساء:٥):

المناسبة والاتصال:

ليتم بث الحياة البشرية ذكر الله جلَّ ذكره حقوق الأطفال اليتامى أولًا، ثم ذكر الحقوق المالية للنساء في الزواج المكرم، فهن الأكثر كفاءة للقيام على حقوق الأطفال، وهنا يذكر حقوق السفهاء في المجتمع قبل أن يكمل حقوق اليتامى، وذلك لأن جزءًا منهم ينتمي إلى النساء واليتامى، فهذا الموضوع تكملة لحقوقهم، وليأخذ المجتمع على أيديهم لأجل مصلحة أنفسهم، فلا يكونون أداة تدميرٍ لأنفسهم ومجتمعاتهم، وبذلك يتم العمل على إخراج السفهاء من حالة السفه بتأهيلهم، وناسب أن يتكلم عن تأهيل اليتامى على إثر كلامه تعالى جده عن حقوق السفهاء باعتبارهم أنموذجًا لتأهيل بقية أفراد المجتمع، وثمة حكمة أخرى؛ إذ إن إعطاء اليتامى أموالهم والانتصار للكفاءة المالية للنساء ومثلهن الرجال لا يعني عدم إعانتهم على كيفية تثميره ولا يعني أن نترك ضعفاء التدبير منهم يهدرونه في السفه والعبث المدمر، ولذا فصل الله ﷻ هنا حقوق السفهاء المبعثرين للمال سواء أكان

ذلك من جهة النساء أم من جهة الرجال.

ولاحظ أن السورة وهي تقرر الحقوق تذكر السفهاء ولكن باعتبار حقوقهم، فالكلام عن حقوق السفهاء وليس عن إجرامهم، وهذا شيءٌ نادرٌ وفريد أن يكون للسفيه حقوقٌ، فناسب أن يذكر حقوق السفهاء على الأمة، وتأهيلهم ليكونوا لبنة مجتمعية صالحة، وهنا تتعجب من جمال هذه الشريعة، وتتألم عندما ترى المسلمين عاجزين عن إبلاغ العالم الحائر التائه عن هذه المنظومات التي تفصل هذه الحقوق مع كثرة الفعاليات والأنشطة الدولية المحمومة التي تحاول البحث في حقوق الأطفال والنساء من الصين والشرق إلى الغرب.

ومصطلح السفيه في سورة النساء يختلف عن مصطلح السفيه الذي في سورة البقرة عند التفصيل مع وجود جامعٍ مشترك، ويتضح هذا عند تأملنا في كلمات القرآن الكريم، فمن حقوق السفهاء:

الحق الأول: يجب تحديد السفهاء في المجتمع ليحصلوا على حقوقهم في الرعاية، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾ (النساء:٥).

يمكنك أن تسمي هذه الآية: آية توظيف الأموال الاجتماعية، حيث يبين الله تعالى فيها وظيفة الأموال في المجتمع كما يبين حق المجتمع والأمة في تأهيل السفهاء الذين لا يحسنون التصرف في الأموال، وتراه في الوقت ذاته يبين حقوق السفهاء في حمايتهم وحماية أموالهم التي يجب أن يقوم المجتمع بتوفيرها لهم لمساعدتهم على تخطي عَقَبَة التصرفات السيئة الناتجة عن سفههم. ولكن من هم السفهاء؟

السفهاء جمع سَفِيه، كالعلماء جمع عليم، والحكماء جمعُ حكيم، والسفه اضطراب في التفكير، واختلال في الرأي، ونقصان في العقل والتدبير، وضعف في إدراك المصالح والمفاسد، وقد يصحبه انحطاط في الخلق العام دون أن يشعر صاحبه بمستواه المتدني، ومن ذلك يقال: زمام سفيه، إذا كان كَثِيرَ الِاضْطِرَابِ، وَيقال: ثَوْبٌ سَفِيهٌ، إذا كان رَدِيء النَّسْجِ، ويلخص الطبري معنى السفيه فيقول: «والسفيه: الجاهل، الضعيفُ الرأي، القليلُ المعرفة بمواضع المنافع والمضارّ.. لأن السفيه إنما يُفسد من حيث يرى أنه يُصلحُ، ويُضيع من حيث يَرى أنه يحفظ، فكذلك المنافق: يَعصي رَبَّه من حيث يرى أنه يطيعُه، ويكفرُ به من حيث يرى أنه يُؤمن به، ويسيء إلى نفسه من حيث يحسب أنه يُحسن إليها» [(١)]، ويبلغ السفه أسوأ ردكاته، وتصل خفة العقل أحطَّ منازلها في أي إنسانٍ يعترض على ربه -تعالى مجدُه-، أو يتقول عليه الأكاذيب ناسيًا مقامه ونفسَه غيرَ قادرٍ ربه حقَّ قدره كما قال الله -عزَّ جارُه-: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ (٧٢ الجن: ٤).

والسفهاء صنفٌ لا يخلو مجتمعٌ منهم، وقد يكونون من الأطفال، وقد يكونون من الرجال، وقد يكونون من النساء، وهذا الصنف ينعم الله ﷻ عليه بالأموال التي آلت إليهم بالوراثة، أو بالعطية، إلا أنهم لا يحسنون التصرف في إدارة أموالهم لنقص عقلٍ، وعَمَهِ تصرفٍ، ويدخل فيهم بعضُ الموظفين غيرُ الأمناء الذين يتصرفون في المال أو المسؤولية الملقاة على عواتقهم تصرفًا غير راشد تبذيرًا أو عبثًا أو لهوًا أو

(١) جامع البيان للطبري (١/ ٢٩٥).

إنفاقًا مجحِفًا في غير اللائق من أمور الحياة، وحتى لا يفسدوا أموالهم، ويجرموا في حق أنفسهم، وحتى لا يفسدوا بأموالهم مجتمعاتهم، وحتى لا تتعطل أموالهم أيضًا من الاستثمار والتنمية.. لذلك كله أوجب الله ﷻ لهم عددًا من الحقوق التي تعينهم على اجتياز دهاليز الحياة، وتأخذ بيدهم لئلا يصبحوا عرضةً لعبث العابثين، أو ضحيةً لضعف تدبيرهم بين العالمين.

وربما قذفتك الأفكار بعيدًا، فتساءلتَ: هل وصف ﴿ٱلسُّفَهَآءَ﴾ هنا للذم أو لشيء آخر؟

فلا تعجب إن قلتُ لك: إنه ليس للذمِّ، بل هو هنا لقب قانوني يُراد به إعادة تأهيل هذه الفئة، وليس للذم المحض كما في سورة البقرة فلن ترى الهدف من إيراده مثل اللقب الوارد في قوله تعالى جده: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٣) ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ﴾ (البقرة: ١٤٢) وإن أخذ المعنى ذاته، فإيراده في سورة البقرة مرادٌ به الذمُّ الخالصُ، إذ ترى من اتصفوا به يتصرفون تصرف من لا يملك عقلًا أو من ضعف عقله، بينما اللقب هنا قانوني لبيان حقوق هؤلاء السفهاء على المجتمع حتى لا يصبحوا أداة تخريبٍ دون أن يشعروا أنهم يخربون، وتجب رعايتهم من أجل ألا يفسدوا من حيث لا يعلمون أنهم يفسدون، فقد يبلغ بهم السفه أن يدمروا أموالهم، ويفسدوا في المجتمع حولهم وهم يظنون ذلك بطولة كما قال سَبْرَة بن عمرو الفَقْعسي[1]:

(١) شرح حماسة أبي تمام للفارسي(٢/ ١٦١).

نحابي بها أكفاءنا ونهينها
ونشرب فِي أثمانها ونقامر

وقال عمرو بن كلثوم[1]:

أَلاَ هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِيْنَا
وَلاَ تُبْقِي خُمُوْرَ الأَنْدَرِيْنَا

مُشَعْشَعَةً كَأَنَّ الحُصَّ فِيْهَا
إِذَا مَا المَاءَ خَالَطَهَا سَخِيْنَا

تَجُوْرُ بِذِي اللُّبَانَةِ عَنْ هَوَاهُ
إِذَا مَا ذَاقَهَا حَتَّى يَلِيْنَا

تَرَى اللَّحِزَ الشَّحِيْحَ إِذَا أُمِرَّتْ
عَلَيْهِ لِمَالِهِ فِيْهَا مُهِيْنَا

واللبانة: الحاجة، والمراد أن الخمر تلعب به حتى يطيش عن قضاء حاجاته الحقيقية.

وهنا يجمع الله تعالى ذكره بين حق هؤلاء السفهاء وحق المجتمع وحق الأمة في إجراء عملية التأهيل لهذه الفئة ليفيد السفهاء من عملية التأهيل قبل غيرهم، وليصبحوا من الفئات التي تبني المجتمع بدلًا من أن تدمره بالعبث بمدخراتهم

(١) المعلقات العشر (ص١٠٧).

المالية كما يبين حقوق السفهاء في الوقت ذاته في استثمار أموالهم مع حمايتهم من أي استغلال من قبل غيرهم، وترى هنا الجمع بين الملكية الفردية والانتفاع المجتمعي، حيث قال الله تعالى جدُّه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (النساء: ٥).

الحق الثاني: يحرم إعطاء السفهاء أموال غيرهم ليتصرفوا فيها لعدم أهليتهم للتصرف، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ (النساء:٥).

فالمراد بأموالكم، أي: المال العام الذي هو حق المجتمع، أو المال الخاص الذي لك أنت أو لغيرك من الناس، فإعطاؤهم الأموال إفسادٌ لهم وللمجتمع حولهم، وتدميرٌ لمقدرات المجتمع الذي يعيشون فيه.. تدميرٌ لثرواتهم، فلا تؤتوهم الأموال بما أنهم لا يحسنون التعامل بها، فهذا الحق لهم كما هو للأمة حفاظًا على الثروة العامة، وحراسة لمقدرات الأمة، ولإعانتهم على ترك الظلم والسوء لأنفسهم، فكأن الله ﷻ يقول للمسلمين: قد تكونون بإعطائكم إياهم الأموال ممن تسببوا في دمارهم ودماركم؛ إذ سيقومون إما بإتلاف هذه الأموال وإما بتوجيهها لتكون دمارًا للإنسانية.. أما والأمر كذلك فإن السفهاء يستحقون الحَجْرَ هنا لئلا يؤذوا أنفسهم أو غيرهم، ومن أمثلة إعطائهم الأموال: أن يُعطِيَ الأبُ مالَه لابنه السفيه، أو يعطي الزوج زوجته السفيهة، أو تعطي الزوجة زوجها السفيه، ومن أبرز الأمثلة العجيبة في

هذه الأيام: أن يتحكم سفيهٌ بالمال العام بدرجة وزير أو مدير أو خفير.. فانظر إلى هذه الآية كيف أنزلت.

لقد أنزلت تحرس أموال الأفراد.. نعم، ذلك وعزة ربك حقٌّ.. أتراها تحرس مال الفرد من قريبه السفيه أبًا كان أو أخًا أو ابنًا أو زوجة ثم لا تحرس الأموال العامة؟

ثم املأ قلبك بالإعجاب من هذه التشريعات التي نزلت في وقتٍ مُبَكِّرٍ من التاريخ البشري النسبي لتحميَ الإنسانية من التصرف الضعيف أو الفاسد في أموالها، واعجب بعد متأوهًا كيف تكون الأمة التي نزلت عليها هذه الآية أكثر أمم الأرض تضييعًا لأموالها، تصبر على سفهائها وهم يعيثون بأموالها في الأرض فسادًا، وتَسَلَّى بترديد قول إقبال رحمه الله (١):

قد هبت الأصنام من بعد البلى
واستيقظت من قبل نفخ الصور
والكعبة العليا توارى أهلها
فكأنهم موتى لغير نشور
وقوافل الصحراء ضل حُداتها
وغدت منازلها ظلال قبور

---

(١) فيلسوف الإسلام، وشاعر الإنسانية الهندي الباكستاني: محمد إقبال .

أنا ما حسدت الكافرين وقد غدوا
في أنعُمٍ ومواكب وقصورِ
بل محنتي ألا أرى في أمتي
عملًا تُقدمه صَداق الحُور

إن هذا التشريع سبقٌ قرآنيٌ مدهش يقدمه القرآن للعالم ليسبق بها النظم الاقتصادية كما يسبق به الاقتصاديين العالميين، وأذكر هنا أن ابن المبارك لما توفي رؤي في المنام فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي برحلتي في الحديث ثم قال: عليك بالقرآن، عليك بالقرآن، عليك بالقرآن، وهذا يذكرني بقول الشاعر القديم:

يَا قَوْمِ إِنَّ لَكُمْ مِنْ إِرْثِ أَوَّلِكُمْ
عِزًّا قَدْ أَشْفَقْتُ أَنْ يُودَى فَيَنْقَطِعَا
لَقَدْ بَذَلْتُ لَكُمْ نُصْحِي بِلاَ دَخَلٍ
فَاسْتَيْقِظُوا إِنَّ خَيْرَ القَوْلِ مَا نَفَعَا

والعجيب أن الله ﷻ قد شدد في عدم إعطاء السفهاء الأموال حفاظًا عليهم وعلى المجتمع، ولئلا تكون وبالًا على السفهاء وغيرهم، ومما يؤكد هذا التشديد ما جاء عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ثلاثةٌ يدعون الله فلا يستجاب لهم: رجلٌ كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجلٌ كان له على رجلٍ مال فلم يُشهِد

عليه، ورجلٌ آتى سفيهًا ماله وقد قال الله عزَّ وجلَّ ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾ »[1].

الحق الثالث: يحرم إعطاء السفهاء المال الخاص بهم لعدم أهليتهم للتصرف فيه.

وهذا هو المعنى الثاني لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾(النساء:٥):

وهذا هو المعنى الثاني لكلمة ﴿أَمۡوَٰلَكُمُ﴾؛ إذ يجوز أن تكون بمعنى أموالكم كما في الحق السابق، ويحمل الكلام على الحقيقة، ويجوز أن تكون بمعنى أموالهم على سبيل المجاز، حتى تحافظوا عليها محافظة عظيمة كأنها أموالكم، فالسفيه هنا يملك لكنه لا يتصرف، وذلك كالأيتام أو الأولاد فلا يعطيهم الوصي أو الأب مالًا هو لهم إن لم يحسنوا التصرف فيه، وإنما نسب ﴿أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ إلى المخاطبين للتنبيه على عدة أمور:

أولًا: ليتعاملوا معها كما لو كانت هي أموالَهم، إجراءً للوحدة بالنوع مجرى الوحدة بالشخص، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ (التوبة:١٢٨) وقوله: ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي إخوانكم كما في قصة الذين تابوا في قصة موسى عليه السلام، فجعل الأخ بمثابة النفس، كذلك جعل أموالهم بمثابة أموالكم، وقوله:﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾ (البقرة:٨٥).

ثانيًا: ليبين الله -عزَّ جاره- أنه إذا ضاع هذا المال، ولم يبق للسفيه من ماله ما

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢ / ٣٣١) برقم ٣١٨١ وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير (١٢ / ٣٣٣) برقم ٥٣٨٦.

ينفق منه عليه وجب على وليه أن ينفق عليه من مال نفسه، فبذلك تكون إضاعة مال السفيه مفضيةً إلى شيء من مال الولي، فكأن ماله عين ماله، وكذلك إذا أنفق الولي قدرًا زائدًا على المحتاج إليه من مال اليتيم ترفهًا فإنه يضمنه من ماله.

ثالثًا: لأن الأموال وإن كانت أموالَهم إلا أن للمجتمع فيها حقًّا.. وقد تتساءل: ما الحقُّ الذي للمجتمع في أموالٍ خاصة؟

أجيبك بأن حق المجتمع في الأموال الخاصة أن يتصرف فيها مالكوها تصرفًا راشدًا لا تصرف السفهاء، بما يؤدي إلى تنمية المجتمع وتعميره لا إلى زلزلته وتدميره.

من المخاطب المكلف بتوفير هذه الحقوق للسفهاء؟

المخاطب في قوله تعالى ذِكرُه: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾ أولياء الأزواج والزوجات والأوصياء كما هو السياق إلا أن عموم اللفظ يدل على أن المخاطب جميع الأمة.. ماذا يعني ذلك؟

إنه يعني أن تقوم الأمة بالرقابة اللازمة على من يتصرف بسفهٍ في الأموال سواء أكان في ماله الخاص، أم في مال الأمة العام.. وهذا يقتضي إنشاء مؤسسات أهلية وحكومية لحراسة الأموال العامة والخاصة من العبث والاستهتار.. وتعجب من أمة تنتشر فيها مقاطع العبث الصارخة بالأموال ثم لا توجد جهاتٌ تأخذ على أيدي السفهاء.. ولعلك رأيت مقطع وضع الأموال الطائلة مع علف الأنعام تأكله ضمن علفها.. ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون، ولا يوجد من يذكرهم في مجتمعاتهم.

فماذا أنت قائلٌ فيما ترى من سفهٍ مجرمٍ مفسدٍ في أموال الأمة هذه الأيام؟.

والآية تدل على أن المنافع الكبرى للأمة لا تكون إلا إذا كانت الأموال في يد إدارة راشدة، يتصرفون فيها بما لا يليق بها لتقوم على حياتهم وتؤمن استقلالهم وكرامتهم، فإذا تحكم فيها السفهاء والعابثون كانت سببًا للدمار، والخراب، والإفساد في الأرض.. ربَّنا فرِّج عن هذه الأمة المكلومة الحزنى يا أرحم الراحمين.

الحق الرابع: يجب الاهتمام بأموالهم وأموالكم العامة والخاصة، والحرص عليها؛ لأن الله جعلها لكم قيامًا أي جعل الحياة تقوم بها وعليها، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَـٰمًا﴾ (النساء:٥).

فالآية تبصرك بأن المنافع الكبرى للأمة لا تتحقق إلا إذا كانت الأموال في أيدي الراشدين يتصرفون بها بما يليق بها، فإذا تحكم فيها السفهاء والعابثون كانت سببًا للدمار والخراب والإفساد في الأرض، وحتى تشعر بذلك ينبغي أن تعلم أن في قوله تعالى ذكره: ﴿قِيَـٰمًا﴾[١] قراءتين توضحان مشهدين، وتدلان على مفاهيم:

المفهوم الأول: المال قوام المعايش الدنيوية، وهو الذي يتيح لكم أن تسيروا في العالم قائمين لا تنحني رؤوسكم أمام عواصف الحياة، وشدائها، وتقلباتها، وتوضحه قراءة الجمهور ﴿قِيَـٰمًا﴾: فهو مصدر قام قيامًا يوصف به الذي يقوم بالمصالح، فهو مَا يُقِيمُكَ، أو هي قائمة بأموركم، فأنتم تقومون بها، وهي تقوم

(١) إبراز المعاني من حرز الأماني (ص ٤١٢)، فتح القدير للشوكاني (١/ ٤٨٩)، التحرير والتنوير (٤/ ٢٣٥).

عليكم، يقَالُ: فُلَانٌ قِيَامُ أَهْلِهِ، وَقِوَامُ بَيْتِهِ، وَهُوَ الَّذِي يُقِيمُ شَأْنَهُ، أَيْ: يُصْلِحُهُ، والقيام اسمٌ لما يقوم به الشيء، أي يثبت، كالعماد، والسناد، فإن ﴿قِيَمًا﴾ مصدر، والإِخْبَارُ عَنِ الأَمْوَالِ بِهِ إِخْبَارٌ بِالمَصْدَرِ لِلْمُبَالَغَةِ مِثْلُ قَوْلِ الخَنْسَاءِ: فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ وَالمَعْنَى أَنَّهَا تَقْوِيمٌ عَظِيمٌ لِأَحْوَالِ النَّاسِ، وَلَمَّا انْكَسَرَتِ القَافُ فِي قِوَامٍ أَبْدَلُوا الوَاوَ يَاءً، ومثله قراءة نافع وابن عامر ﴿قيمًا﴾ على قولٍ، فهما مصدران يصفان الأموال هنا، والكعبة في المائدة، ووصف الدين في الأنعام بالقِيَم والقَيِّم؛ أي: هو مستقيم قال حسان بن ثابت رضي الله عنه [1]:

فنشهدُ أنكَ، عندَ المليـ

ـكِ أرسلتَ حقـًا بدينٍ قيمْ

والمعنى كما يقول الزمخشري: «أي تقومون بها، وتتعيشون، ولو ضيعتموها لضعتم»[2]. فقد قرر الله تعالى أنه لا يحصل قيامكم الحيوي إلا بالمال، فالمال هو قوام حياتكم، فأكلكم وشربكم وبناؤكم وحركتكم وتربيتكم وفق ما عندكم من المال، فلما كان المال سببًا للقيام والاستقلال سماه بالقيام إطلاقًا لاسم المسبَّب على السبب.. وكيف لك أن تؤدي أنشطتك الدنيوية إلا بالمال؟ «لأن الإنسان ما لم يكن فارغ البال لا يمكنه القيام بتحصيل ما يهمه من الدنيا، وما لم يتمكن من تحصيل ما يهمه من الدنيا لا يمكنه أمر الآخرة، ولا يكون فارغ البال إلا بواسطة ما يكفيه من

(١) ديوان حسان بن ثابت (ص: ٢٠٦).

(٢)الكشاف (١/ ٤٧١).

المال؛ لأنه لا يتمكن في هذه الدار التي مبناها على الأسباب من جلب المنافع ودفع المضار إلا به، فمن أراده لهذا الغرض كان من أعظم الأسباب المعينة له على اكتساب سعادة الآخرة، ومن أراده لنفسه كان من أعظم المعوقات عن سعادة الآخرة» (١)، ولتثبيت ذلك في العقلية المسلمة يحدثنا عمرو بن العاص ﵁ أن النبي ﷺ دعاه فقال: «خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني»، فأتيته وهو يتوضأ فصَعَّدَ فيَّ النظر ثم طأطأه، فقال: «إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة» قلت: يا رسول الله! ما أسلمت من أجل المال ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ﷺ. فقال: «يا عمرو نعم المال الصالح للمرء الصالح» (٢).

المفهوم الثاني: المال أساس الاستقلال الحقيقي، وبوابة التأثير الحر في التعامل المحلي والعالمي؛ إذ يمكنكم بواسطته التصرف الحرُّ أفرادًا وأممًا، وينمي هذا المعنى في نفسك القراءة السابقة، وكذلك قراءة نافع وابن عامر ﴿قِيَمًا﴾؛ إذ ذهب البصريون إلى أنها جَمْعُ قِيمَةٍ، كَدِيمَةٍ وَدِيَمٍ، أَيْ: جَعَلَهَا اللهُ قِيمَةً لِلْأَشْيَاءِ، وأثمانًا لها، أي فكيف تتصرفون إن أهدرها السفهاء؟

وإنك -وعزة الله- لتعجب إذ لا ترى لمن نزلت عليهم هذه الآية استقلالًا ماليًا،

---

(١) نظم الدرر ٥/ ١٩٥.

(٢)أحمد (٤ / ١٩٧) برقم ١٧٧٩٨، وصحح الأرناؤوط إسناده على شرط مسلم، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد برقم ٢٢٩.

كيف إلى الآن لا يوجد لديهم مصانع يستقلون بها عن الاستيراد من الخارج.. مصانع حقيقية وليست مصانع تجميع، وهو أساس قدرتهم على الشراء والإثراء والتأثير في الواقع العالمي.

والاستقلال الفردي يجليه لك سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ حينما جاءه رجل فقال: يا أبا عبدالله ! تمسك هذه الدنانير؟! فقال: اسكت، لولا هذه الدنانير لتمندل (يعني: لتمسح) بنا هؤلاء الملوك(١).

إن ورود هذه اللفظة ﴿قِيَمًا﴾ ضمن حقوق السفهاء يكاد يصرخ بهم ليسارعوا في البناء الاقتصادي لأنفسهم، وهذا مفهومٌ لا يتنافى مع الزهد.

فانظر قوة لفظة ﴿قِيَمًا﴾ هنا؛ إذ يتراءى لك أن معناها: التي تقوم بها حياتكم ومجدكم، ومثال ذلك هذه الخيرات المدهشة الموجودة في العالم الإسلامي من الطاقة الشمسية إلى الثروة الزراعية إلى السلاح النفطي والثروة السمكية، وأهم من ذلك كله الثروة البشرية.. أفلا يدل تضعضع الأمة ووهنها على أن سفهًا أصاب هذه الأمة فصار يتحكم بها؟ وحتى يظهر الأمر المبكي المضحك في هذه الأمة فاضرب لهم مثالًا بشركة سامسونج الكورية كبرى الشركات الالكترونية التي سجَّلت أرباحًا صافية خلال الربع الثاني من عام ٢٠١٥م بلغت ٥,٥ مليار يورو، ومعنى ذلك أن أرباحها السنوية تفوق بعض ميزانيات بعض الدول العربية الغنية.

فهذه الآية التي تبني الحياة الإسلامية ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ

---

(١) حلية الأولياء (٦/ ٣٨١).

قِيَمًا﴾ (النساء: ٥) تشير إلى ضرورة المحافظة على الثروة العامة والاحتياطات المالية بهذا الوصف القرآني الفريد للمال ﴿قِيَمًا﴾، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الهدي الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جُزْءًا من النبوة»[1]، وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما: «إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يَتكففون الناس، وإنك لن تنفق نفقة، تبتغي بها وجه الله، إلا أجرت بها، حتى ما تجعل في فِيِّ امرأتك»[2].

فقارن هذا الحث الشديد على الاستثمار، وبيان أهمية المال، وخطورة الاقتصاد بما ورد في إنجيل متى:

«(١٩: ٢٣) إنه يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السماوات (٢٤) وأقول لكم أيضًا: إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله»،

وورد فيه أيضًا٦: ٢٤ لا يقدر أحدٌ أن يخدم سيدين؛ لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال ٢٥ لذلك أقول لكم: لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون، وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون. أليست الحياة أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللباس. ٢٦ انظروا إلى طيور السماء: إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن، وأبوكم السماوي

---

(١) أحمد(١ / ٢٩٦) برقم ٢٦٩٨ - وقال الأرناؤوط: حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف. وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ١٩٩٣.

(٢) صحيح البخاري - ترقيم فتح الباري (٢ / ١٠٣) برقم ١٢٩٥.

يقوتها. ألستم أنتم بالحري أفضل منها؟

وهذا الكلام إن صح عن عيسى عليه السلام فله تأويله السائغ، والمسيح عليه السلام يلوم الغني الذي لا يؤدي حق ماله، أو يريد ألا يكون المرء عبدًا للمال، كما يريد أن نتوكل على الله حق توكله، وهذا الكلام العيسوي المبارك من المشكاة ذاتها التي خرج منها قول النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم: « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا»[1]، ولكننا لا بد أن نجمع بينها وبين البيان الإلهي الأخير الذي يمتاز بالوضوح الكافي الذي يزعج القلب إزعاجًا لأجل أن يهتم المخاطب بالمال ويدرك خطورة إدارته للحياة كما في هذا التعبير المدهش: ﴿قِيَمًا﴾ و﴿قِيَمًا﴾.

ومن المدهش أن ترى أتباع عيسى عليه السلام قد تركوا مثل هذا الكلام إلا خرافاتٍ ابتدعوها أو ابتدعوا معانيها يرضون بها غريزة التدين، ولذا ترى أممهم فاقت وارتفعت، وحدث عندنا العكس؛ إذ تركنا كتابنا فظلمنا أنفسنا والعالم حولنا، فأصابنا عذابٌ بَئِيسٌ بما تركنا من كتابنا.

الحق الخامس: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾ (النساء:٥).

فعدم إعطاء المال لا يعني تركهم دون قيام على ما يكفل لهم الحياة الكريمة، ويقصد بالرزق هنا العطاء العام للأمور المحتاج إليها من الأشياء الحسية،

---

(١) أحمد (١/ ٣٠) برقم ٢٠٥، وقال الأرناؤوط: «إسناده قوي رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبدالله بن هبيرة فمن رجال مسلم».

والمعنوية كالطعام، والدراسة.

فلابد من الإنفاق عليهم حتى يوجب لهم الحياة الكريمة، وأول ذلك الطعام كما قال في آية المرضعات: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة:٢٣٣)، أي أعطوهم ما يشعرهم بحرية التصرف، دون أن يفضي ذلك إلى إعطائهم ما يزيد سفههم، وهذا يعني القيام عليهم بتوفير ما يحتاجون إليه، ومنعهم من التصرف غير المناسب إلى الوقت الذي يتمكنون فيه من التصرف في أموالهم، ومثال العطاء الممنوع في أيامنا هذه: إعطاء الولد الذي يعلم عبثه أدوات تزيد طيشه -كالهاتف، والسيارة، ومعها مصروف (الجيب)- دون حساب.

الحق السادس: وجوب استثمار المال لهم.

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ (النساء:٥).

يجب أن يرزقوا ما يحتاجون إليه، وينبغي استثمار أموالهم، وفهمنا استثمار أموالهم من قوله ﴿فِيهَا﴾، فأمر الله ﷻ في قوله: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ (النساء:٥) بأمرين معًا: أن يتم الإنفاق عليهم، وأن تنمى أموالهم، فلم يقل (منها)، وذلك لأن المراد بقوله: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ استثمارها وليس تنقصيها بالنفقة منها كما قال صاحب «الكشاف»: «أي اجعلوها مكانًا لِرزقهم، بأن تتجروا فيها، وتتربحوا؛ حتى تكون نفقتهم من الربح لا من صلب المال»[1]، وهل يكون ذلك إلا بالاستثمار الحقيقي

---

(١) الكشاف (١/ ٤٧٢).

للمال، والبحث عن وسائل تنميته، وهذا يقتضي البحث عن المال، وتثميره، وعدم إهلاكه، وكذلك عدم إعطائه لمن لا يدرك قيمته، فيكون إعطاؤهم من الأموال حسب حاجتهم المعتادة، ويقوم الـمُعطِي بتنويع طريقة الإعطاء، فتارةً يعطيهم من ثمنها، وتارةً يعطيهم من رأسها، وتارة يعطيهم من ربحها.

الحق السابع: ﴿وَاكْسُوهُمْ﴾ (النساء: ٥).

وخصها من أنواع الرزق؛ لتساهل الناس فيها، والمراد الكسوة المعتادة لا الكسوة المبالغ فيها التي تعصف بأموالهم.

الحق الثامن: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (النساء: ٥).

أي قولوا لهم القولَ المعروفَ حُسْنَهُ قبل أن ترزقوهم، وتكسوهم، وبعد ذلك.

والقول المعروف حسنه يدخل فيه:

- القول الحسن، فلا تغلظوا لهم القول، أو تقهروهم في الخطاب، أو تشعروهم بكونهم عبئًا عليكم، بل قولوا لهم قولًا معروفًا حسنُه وجمالُه من كل ما سكنت إليه النفس، واطمأنت، وشعرت بقيمتها ومكانتها.
- الوعد الجميل بالبر والصلة، فتعدونهم بالجميل إذا حصل الربح أو الفلاح كما يشير إليه ابن عباس رضي الله عنهما [1].
- التعليم والإرشاد بالأسلوب المتعارف على تأثيره وقوته، كتعليمهم ما

(١) تفسير الرازي (٩/ ٤٩٦).

يؤهلهم لاستلام أموالهم عند الرشد، ومن ذلك ما أشار إليه القفال: إن كان المولى عليه صبيًّا، فالولِي يعرفه أن المال ماله، وهو خازن له، وأنه إذا زال صباه، فإنه يرد المال إليه، ونظيره هذه الآية قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ (الضُّحَى:٩)... وكذا قوله: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ (الإِسْرَاءِ:٢٨) وإن كان المولى عليه سفيهًا وعظه، ونصحه وحثه على الصلاة، ورَغَّبه في ترك التبذير والإسراف، وعرفه أن عاقبة التبذير الفقر والاحتياج إلى الخلق إلى ما يشبه هذا النوع من الكلام[1].

ولكن لماذا أمر الله ﷻ بالقول المعروف؟ لعلك تجد الجواب في أن العادة أن يستهين الناس بالسفيه.. فقد جرت العادة ألا يظهروا الاهتمام به، فأمر الله تعالى بالقول المعروف لهم ولا يستهان بذلك وإن لم يشعروا بذلك، ولأن القول المعروف أول الدرجات المعالجة التي تسهم في إزالة السفه؛ فالقول الجميل يؤثر في القلب، أما خلاف القول المعروف، فإنه يزيد السفيه سفهًا، والسوء قبحًا؛ لأنه إن زجر خالف كما قيل:

إذا نهي السفيه جرى إليه

وخالف والسفيه إلى خلاف

والآن بعد أن وجدت أن هذه الآيات الست فصلت لليتامى ستة عشر حقًا،

---

(١) تفسير الرازي (٩/ ٤٩٧).

وفصلت للنساء في موضوع الزواج فقط ثمانية حقوق، وفصلت للسفهاء ثمانية حقوق.. كل ذلك في صفحة واحدة تكونت من ست آيات.. بما تشعر إزاء ذلك؟ ألا يدهشك هذا التفصيل التشريعي الحقوقي؟

ألا تشعر بأنه يصل إلى حد الإعجاز؛ إذ نزل هذا الكلام على نبيٍّ أمي في أمة بعيدة عن الحضارة والثقافة والتشريع في زمانه؟ فلماذا لا نقدم هذه الرسالة العظيمة إلى المنظمات الدولية التائهة؟ لماذا لا نساعدها في التقنين الراشد لحقوق الفئات الإنسانية المختلفة؟ هل يمكنك أن تجد عندهم هذا التفصيل الحقوقي للأيتام؟ هل يمكنك أن تجد عندهم هذا التفصيل الحقوقي للنساء؟ لماذا لا نعقد اللقاءات بهم لنخبرهم عن الإيجابيات العظيمة والمكاسب الضخمة التي تكسبها الإنسانية لو طبقت هذه الشريعة الرائعة الربانية التي يقول الله –تعالى جده– عنها: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤).

أغمض عينيك، وفكر في حال العرب واليهود في المدينة عندما نزلت هذه الآية وما قبلها وما بعدها، وقل لي: أليست الآية تمثل أنموذجًا للإعجاز القانوني الاقتصادي الاستثماري في القرآن الكريم؟ وهل كان المستوى الفكري للعرب وحتى اليهود يطيق أن يستوعب مثل هذا التفصيل؟